نقطة نور فى الظلام

(مراجعة علمية لكتاب الدكتور أسامة يحيى فى فهم الرضيع والتواصل معه)

أ.د.خالد فهمى إبراهيم

(١) مدخل : لا حدود للمعرفة!

تكون دراسات لغة الطفل حقلاً معرفيًا خصبًا لأسباب كثيرة، يمكن إجمالها فى : ثراء المجالات، وتعدد الاتجاهات، وتنوع المناهج.

وربما كانت كلمة السر فى خصوبة هذا الحقل راجعة إلى أنه يعنى بقضية عابرة للاختصاصات بامتياز.

لقد أنجز الدرس المعاصر عملين مرجعيين هما :

أ- الدليل الببليوجرافى للطفل العربى، الذى أصدره المجلس العربى للطفولة والتنمية، سنة ١٩٩٤م.

ب- الدراسة المسحية التحليلية لبحوث لغة الطفل وتنميتها فى البحث العلمى، التى أصدرها المجلس نفسه سنة ٢٠٠٧م.

وقد أمكن فى مقالة علمية لى بعنوان : لغة الطفل فى الوطن العربى : المجالات والاتجاهات والمناهج أن أرصد المنجز الموزع على :

أولاً- عدد كبير من المجالات.

ثانيًا- عدد كبير من الاتجاهات.

ثالثًا- عدد كبير من المناهج.

وقد أمكن أيضًا أن أرصد بعضًا من أوجه القصور التى تصب فى تقدير قيمة عمل الدكتور أسامة يحيى أبى سلامة بشكل مبدئى بما هو عمل يقع فى نطاق يعانى فراغًا ملموسًا من البحوث والدراسات.

وهذا التوجه إلى دراسة لغة الرضيع يعكس وعيًا بالخريطة المعرفية لبحوث حقل لغة الطفل العربى ودراساته، ويعكس شعورًا بأهمية هذا الباب.

(٢) الكتاب : مادته وانتماؤه المعرفى وأهميته

يأتى هذا الكتاب ضمن سلسلة ثمرات الفؤاد فى فنون تربية الأولاد؛ ويقع على رأسها ليمثل : الكتاب الأول وهو الأمر الذى يعكس وعيًا وتقديرًا لوظيفة اللغة فى النشاطات الإنسانية.

والمجال الذى يقع فى إطار موضوع الكتاب ومادته هو لغة الطفل، معتمدًا نتائج تصنيف النمو، ليكون مختصًا بلغة مرحلة بالغة الأهمية هى مرحلة الرضاعة.

١/٢ ويضم كتاب (إبداع وإمتاع فى فهم الرضيع : إشاراته وكلماته وسلوكياته) ما يلى :

الباب الأول - السلوكيات :

- العمليات البيولوجية (الرضاعة / وتناول الطعام)

- السلوكيات اللازمة لإنسانيته (حركية معرفية / وعاطفية نفسية)

الباب الثانى – الإشارات :

- نظام إشارات فطرى غريزى (إيجابية / الوسطى/ السلبية)

- نظام إشارات تعليمى/ تدريبى.

الباب الثالث - فترة الكلام وتحول الإشارات إلى كلمات : فترة ما بعد الإشارات

- (السمع /إصدار الصوت : أصوات فطرية، وأصوات مقلدة)

- الفروق الفردية والنمو اللغوى.

٢/٢ ومن الممكن أن نرى فى هذا الكتاب فائدة للكثيرين بتوسيع فحص انتمائه المعرفى، وفى هذا السياق يمكن تأمل ما يلى :

أولاً- هذا كتاب فى تربية الطفل، بحكم وروده ووضعه فى سلسلة ثمرات الفؤاد فى تربية الأولاد؛ فهو كتاب تربوى بحكم غايته وهدفه.

ثانيًا- وهو كتاب فى علم النفس، بحكم استهدافه تحقيق (ص :٥) "بداية مقبولة لفهم نفسية الطفل

الرضيع".

ثالثًا- ثم هو كتاب فى اللسانيات (علم اللغة) بحكم جزء كبير من مادته الموزعة على الأصوات الانبعاثية الدالة، والإشارات التواصلية، وهو فى هذا الانتماء يتنازعه فروع منضوية تحت اللسانيات (أو علم اللغة) يمكن إجمالاً فى ما يلى :

أ- اللسانيات التواصلية.

ب - اللسانيات العيادية (الطبية)

ج - اللسانيات النفسية.

د- اللسانيات الاجتماعية.

هـ - علم لغة الجسد، أو الإشارات.

رابعًا- ثم هو كتاب ينتمى إلى مجال الأدلة الإرشادية بحكم توجهه لخدمة الآباء والأمهات والمربين.

٣/٢ ولعل تنوع انتماءات هذا الكتاب تكشف عن بعض ملامح أهميته، ويضاف إلى ذلك ما يلى من محددات ترقى بتقدير أهميته :

أولاً- صدوره عن خبرة وتجربة صاحبة العملية.

ثانيًا- صدوره فى سياق تتنامى فيه بحوث تنمية لغة الطفل على المستوى العربى.

ثالثًا- صدوره فى سياق يشهد فقرًا حقيقيًا فى مجاله، والمرحلة التى يتوجه إليها. لقد كشف فحص العملين المرجعيين اللذين سبقت الإشارة إليهما فى حقل دراسات لغة الطفل إلى ندرة تشبه العدم فى مجال لغة الطفل فى مرحلة الرضاعة.

رابعًا- جمعه بين النظرى والتطبيقى.

خامسًا- استثماره للموضحات البصرية الشارحة.

(٣) لغة الرضيع :

قراءة فى خطاب المصادر مثل اللجوء إلى الطفل عنصرًا ثابتًا فى كثير من محاولات تفسير نشأة اللغة الإنسانية ومثل حضوره ما يشبه القشة التى يتعلق بها كل مشرف على الغرق، فقد استحضره أصحاب نظريات : التنفيس عن النفس، والتطور وغيرهما، فى محاولة لتقريب تفسير نشأة اللغة الإنسانية.

غير أن الملاحظ على مصادر هذا الكتاب انشغاله الظاهر بالمصادر التى تندرج ضمن أعمال الأدلة الإرشادية.

وغاب عن مصادر الكتاب الأصوات التى تقارب لغة الطفل فى اللسانيات المعاصرة، ولاسيما عند تشومسكى الذى يرى أن اللغة عضوًا مسئولاً عن إنتاجها، واكتسابها، والتطوير الذى صب

فى هذا المنظور من قبل ستيفن بفكر الغريزة اللغوية، أو عند الذين ينتقدون هذا المنظور البنيوى!

(٤) كتاب لغة الرضيع، وكيفية فهمه والتواصل : مقالة فى الوظائف.

إن قارئ هذا الكتاب يمكنه أن يلحظ أنه قابل لأن يقوم بمجموعة من الأدوار والوظائف، بحكم شبكة الانتماءات المعرفية التى تتنازعه، وفى ما يلى محاولة للكشف عن آفاق استثماره :

أولاً- الأفق التربوى :

تبدو الوظيفة التربوية المركزية المعلن عنها فى مناطق كثيرة من هذا الكتاب، وهى وظيفة تظهر وتتجلى بسبب من الغاية التى يرمى إلى تحقيقها المؤلف الكريم، وهى وظيفة متجاوزة، بمعنى أنها تستهدف شريحتين أساسيتين هما :

شريحة الآباء والأمهات، ومن يقوم مقامها، أو يعاونهما فى تربية الطفل الرضيع، بما هم مقدمو الخدمة.

شريحة الأطفال الرضع، بما هم مستقبلو الخدمة.

ثانيًا- الأفق النفسى :

وهذه الوظيفة وإن كانت شديدة الارتباط بسابقتها إلا أنها تبدو وسيلة وأداة فى يدها، تعين على تحقيقها وتجويدها.

إن تحسين التواصل والتفاهم سبب لسعادة الطفل وسعادة الأبوين معًا.

ثالثًا- الأفق الحضارى :

وهو الأفق الذى يتطلع إلى المستقبل، وترقيته عن طريق العناية بالأجيال القادمة، وتجنيبها عثرات ما مضى.

رابعًا- الأفق التخطيطى :

ذلك أن خدمة ميدان الطفولة، ولغة الطفولة له تأثير مباشر فى تحسين العمليات التعليمية، والتدريبية، وتسهم فى رفع كفاءة المهارات والملكات.

خامسًا- الأفق التعليمى :

مع تقدير أن التعليم هو الركيزة الأساسية فى اكتساب المعارف، وبناء المنظومات الأخلاقية، ومع تقدير المهمة المركزية للغة فى ذلك الباب يظهر أثر العناية بتحسين التواصل، ووسائله.

لقد جاء الكتاب ليضع لبنة صغيرة فى طريق خدمة هذا المجال المعرفى المهم للغاية، ويفتح الباب أمام التقدم للبناء عليه، وتطوير ما أنجزه.

لقد اجتهد المؤلف الكريم فى خدمة كتابه، وحاول أن يطبق إجراءات الجودة عن طريق :

أ- توظيف المواقف الواقعية والحيوية.

ب- تأكيد الحقائق الكلية بطريقة طباعية وتشكيلية مائزة، كما تقرر فى إجراءات ضمان الجودة.

ج- محاولة استيعاب مجالات التواصل الغريزية وغير الغريزية.

د- محاولة الشمول التى استهدفت تغطية الحاجات البيلوجية والنفسية معًا.

الكتاب يقرر فى رسالته المتجاوزة ضرورة العناية بهذه المرحلة، وطرق فهمها، والتواصل معها.

افهموا أطفالكم، واستمتعوا بأطفالكم.

أطفالنا مصدر للسعادة، هذا هو الصوت الخالد الذى ينبغى أن نصغى إليه كثيرًا ونحن نستقبل هذا العمل.